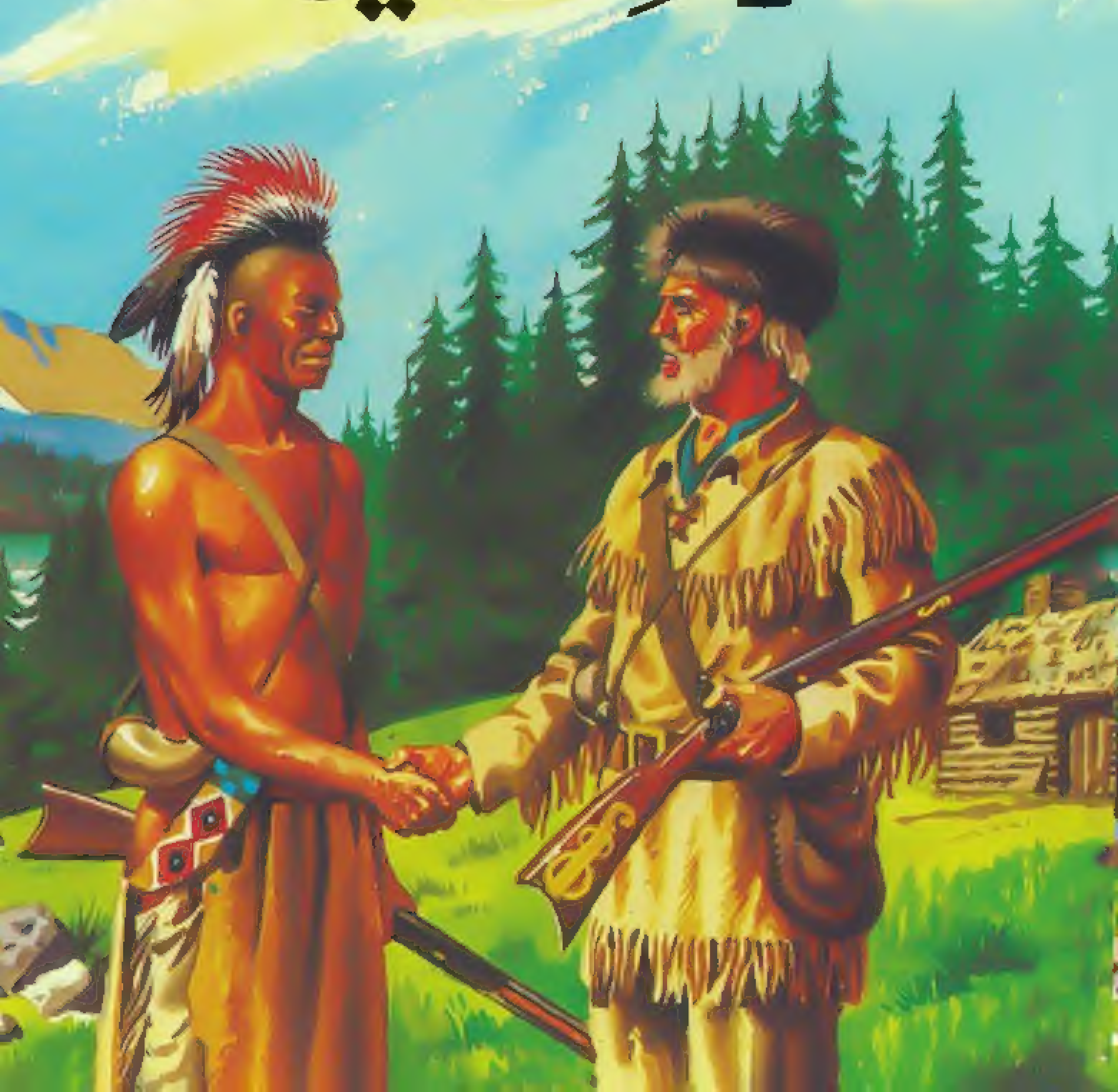
القصص العالمية

المُحَارِب الأخير





الأماكن التي حاربَ
فيها الفرنسيّون
والهنود
١٧٥٤ - ١٧٦٣
كندا الفرنسية
مونتريال
نهر سانت لورانس
بحيرة تشامبلين
بحيرة هوريكان
حصن وليم هنري
حصن إدورد
نهر هدسن
المستعمرات
الأمريكية
بوسطن
بليموث
كيب كود
لونغ آيلند
نيويورك
فيلادلفيا


بحيرة
أنتاريو

جيمْس فَنيمور كوبر ١٧٨٩ - ١٨٥١

روائِيٌّ أَمْريكيٌّ. وُلِدَ في بيْرلِنجْتُن، ولايَةِ نيوجيرْسي، في عائِلَةٍ أَرِسْتُقْراطِيَّةٍ. قَضى جانِبًا كَبيرًا من طُفولَتِهِ في مَناطِقَ حُدودِيَّةٍ. ودَخَلَ بَعْدَ إنْهائِهِ دُروسَهُ حَياةَ البَحْرِ لِفَتْرَةٍ قَصيرَةٍ. ثُمَّ عَمِلَ مُزارِعًا. وانْتَقَلَ في العامِ ١٨٢٢ إلى مَدينَةِ نيويورْك، حَيْثُ ظَلَّ يُجاهِدُ كَيْ تُؤَمِّنَ لَهُ كِتاباتُهُ المُسْتَوى المَعيشِيَّ الّذي نَشَأَ عَلَيْهِ.

زَوَّدَتْهُ طُفولَتُهُ وحَياةُ البَحْرِ بمادَّةٍ غَنِيَّةٍ لإحْدى وعِشْرينَ رِوايَةً من رواياتِهِ الأَرْبَعِ والثَّلاثينَ. وكانَ أَوَّلَ كاتِبٍ أَمْريكِيٍّ ناجِحٍ يَسْتَخْدِمُ خَلْفِيَّةً أَمْريكِيَّةً أَصيلَةً في كِتاباتِهِ، مِمّا ساعَدَ على تَثْبيتِ مَكانَتِهِ كَكاتِبٍ عالَمِيٍّ. كما كانَ واحِدًا من كِبارِ النُّقادِ الاِجْتِماعِيّينَ في زَمانِهِ.

وكِتابُهُ هذا (١٨٢٦)، يَكْشِفُ صورَةً من حَياةِ أولئِكَ المُغامِرينَ الّذينَ عاشوا في عَصْرِ بناءِ قارَّةِ أَمْريكا. وَهْوَ كِتابُ مُغامَراتٍ مُشَوِّقٌ، يَزيدُهُ تَشْويقًا الرُّسومُ المُلَوَّنَةُ الرّائِعَةُ الّتي تُزَيِّنُ صَفَحاتِهِ.

سلسلة «القصص العالمّية»

١ - جَزيرَةُ الكَنْز
٢ - أُسْرَةُ روبِنْسُن السّويسريَّة
٣ - الحَديقَةُ السِّرِّيَّة
٤ - رِحْلَةٌ إلى باطِنِ الأَرْضِ
٥ - قِصَّةُ مَدينَتَيْن
٦ - العالَمُ المَفْقود
٧ - الفُرْسانُ الثَّلاثَة
٨ - شَبَحُ باسْكِرْفيل
٩ - كُنوزُ المَلِكِ سُلَيْمان
١٠ - حَوْلَ العالَمِ في ثمانينَ يَوْمًا
١١ - أُنْشودَةُ العيد
١٢ - الرّيحُ والصَّفْصاف
١٣ - الأميرُ السَّعيد
١٤ - جَزيرَةُ الأَحْلام
١٥ - المُحارِبُ الأَخير

القصص العالمية

المُحارِب الأخِير



إعداد: الدكتور ألبير مُطْلَق
عَن قصّة: جيمس كوبر
رُسوم: فرانك همفرِس

مكتبة لبنان

مُنْذُ نَحْوِ مِائَتَيْ عامٍ كانَ وادي نَهْرِ هَدْسُن في أَمريكا الشَّمالِيَّةِ مَسْرَحًا لِقِتالٍ مَريرٍ شَرِسٍ بَيْنَ المُسْتَوْطِنينَ الإِنْجليز والمُسْتَوْطِنينَ الفَرَنْسِيّينَ. وكانَتْ قَبيلَةُ الموهيكان، إحْدى قبائِلِ الهُنودِ الحُمْرِ، تَعيشُ ذاتَ يَوْمٍ في ذلِكَ الوادي عيشَةَ سَلامٍ واطْمِئْنانٍ. أَمّا في تِلْكَ الآوِنَةِ فقد كانَتِ الغاباتُ الكَثيفَةُ الَّتي تَفْصِلُ بَيْنَ الإنْجليزِ والفَرَنْسِيّينَ مَسْرَحًا لِلقِتالِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ. واشْتَرَكَ الكَثيرُ مِنَ الهُنودِ الحُمْرِ مِنْ قَبائِلَ مُخْتَلِفَةٍ في القِتالِ إلى هذا الجانِبِ أَوْ ذاكَ.

كانَ للإنْجليز حامِيَةٌ في حِصْنِ إدْوَرْد. وفي العامِ ١٧٥٧ كانَتِ الأُخْتان الشّابّتانِ أليس وكورا مونْرو في ذلِكَ الحِصْنِ في انْتِظارِ انْتِقالِهِما إلى حِصْن ولْيَم هَنْري الَّذي كانَ بِإمْرَةِ والِدِهِما الجِنِرالِ مونْرو. وكانَ حِصْنُ وِلْيَم هَنْري يَقَعُ عَلى طَرَفِ بُحَيْرَةِ هوريكان، ويَبْعُدُ مَسافَةَ خَمْسَةَ عَشَرَ ميلًا عن حِصْنِ إدْوَرْد.

ذاتَ صَباحٍ وَصَلَ عَدّاءٌ هِنْدِيٌّ يُدْعى ماغُوا إلى حِصْنِ إدْوَرْد يَحْمِلُ رِسالَتَيْنِ. الأولى تُفيدُ أَنَّ القائِدَ الفَرَنْسِيَّ مونتْكالم يَتَقَدَّمُ على رَأْسِ قُوَّةٍ كَبيرَةٍ. وتُفيدُ الثّانِيَةُ أَنَّ الجِنِرالَ مونْرو مُحْتاجٌ إلى تَعْزيزاتٍ عاجِلَةٍ.

وتَقَرَّرَ إرْسالُ أَلْفٍ وخَمْسِمائَةِ رَجُلٍ إلى حِصْنِ وِلْيَم هَنْري في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، على أَنْ يَسْلُكوا الطَّريق العَسْكَرِيَّ المعْهودَ. ولَمّا

كانَ هؤلاءِ الجُنودُ مُعَرَّضينَ لِلهَجَماتِ فقد تَقَرَّرَ ألّا تَذْهَبَ الأُختانِ أليس وكورا مَعَهُمْ، وإنَّما تَذْهَبانِ عَبْرَ مَمَرٍّ سِرِّيٍّ في الغابَةِ عَسيرِ الاِرْتِيادِ. وتَقَرَّرَ أَنْ يَصْحَبَ الأُخْتَيْنِ الضّابِطُ دَنْكِن هيوَرْد، وأَنْ يَكونَ الهِنْدِيُّ الأَحْمَرُ ماغُوا دَليلًا.



في صَباحِ اليَوْمِ التّالي انْطَلَقَ الرَّكْبُ. كانَ الضّابِطُ والشّابَّتانِ على ظُهورِ الخَيْلِ، أَمّا ماغُوا فقد كانَ يَسيرُ على قَدَمَيْهِ في المُقَدِّمَةِ لِيَدُلَّ على الطَّريقِ. وبَيْنَما كانوا يَعْبُرونَ مَمَرًّا ضَيِّقًا مُعْتِمًا وَسَطَ جَنَباتٍ (شُجَيْراتٍ) كَثيفَةٍ، قالَتِ الأُخْتُ الصُّغْرى، أَليس، هامِسَةً: «أنا لا أَثِقُ بِماغُوا.»

أَجابَ الضّابِطُ دَنْكِن هيوَرْد قائِلًا: «الذّهابُ مَعَ الجُنودِ مُمْكِنٌ، لكِنَّ طَرِيقَهُمْ مَعْروفٌ مَكْشوفٌ، أَمّا طَريقُنا فلا يَزالُ سِرِّيًّا.»

ورَأَتْ كورا أَنَّ أُخْتَها تَتَخَيَّلُ أَشْياءَ لا وُجودَ لها، فقالَتْ: «أنا أَثِقُ بِهِ.» لكِنّ أَليس كانَتْ مُحِقَّةً في إحْساسِها بِالخَطَرِ. فقد حَدَثَ ذاتَ يَوْمٍ أَنِ ارْتَكَبَ ماغُوا خَطَأً فأَنْزَلَ به والِدُ الشّابَّتَيْنِ عِقابًا صارِمًا. وكانَ الضّابِطُ الشّابُّ يَعْرِفُ بِأَمْرِ تِلكَ الحادِثَةِ، لكِنَّهُ لم يَشَأْ أَنْ يُخْبِرَ الشّابَّتَيْنِ.

وبَدا أَنَّ ماغُوا يَعْرِفُ خَفايا الطَّريقِ ويَتَحَرَّكُ بِسُهولَةٍ، فتَبِعَهُ الثَّلاثَةُ بِثِقَةٍ واطْمِئْنانٍ، دونَ أَنْ يُلاحِظوا أَنَّهُمْ مُراقَبونَ. وبَعْدَ أَنْ قَطَعوا أَمْيالًا أَبْطَأَ ماغُوا سَيْرَهُ ثمّ تَوَقَّفَ وقالَ: «فَقَدْتُ الطَّريقَ. لا أَجِدُ المَمَرَّ التّاليَ.»

نَظَرَتِ الأُخْتانِ إحْداهُما في وَجْهِ الأُخْرى، ثمّ التَفَتَتْ كورا إلى الضّابِطِ وقالَتْ له: «ما العَمَلُ؟»

تَقَدَّمَ الضّابِطُ قَليلًا عَلَّهُ يَكْتَشِفُ شَيْئًا، لكِنّ جَنَباتٍ كَثيفَةً كانَتْ تَمْلَأُ المَكانَ، فلم يَرَ حَوْلَهُ مَمَرًّا واضِحًا. ثُمَّ بَذَلَتِ الجَماعَةُ مَجْهودًا يائِسًا، وَتَمَكَّنتْ أَخيرًا مِنَ الوُصولِ إلى مَمَرٍّ مائِيٍّ التَقَتْ عِنْدَ ضَفَّتِهِ رِجالًا ثَلاثَةً.



كانَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ حارِسَ حُدودٍ إِنْجليزيًّا يُلَقَّبُ بِعَيْنِ الصَّقْرِ. وأَمّا الآخَرانِ، وهُما أَبٌ وابْنُهُ، فكانا مِنْ قَبيلَةِ الموهيكانِ الهِنْدِيَّةِ.

الأَبُ يُدْعى تشِنْغا والاِبْنُ يُدْعى أُنْكاس. وعِنْدَما رَأى عَيْنُ الصَّقْرِ الضّابِط الشّابَّ يَقْتَرِبُ مِنْهُ تَحَفَّزَ ووَضَعَ إِصْبَعَهُ على زِنادِ بُنْدُقِيَّتِه.

فأَسْرَعَ الضّابِطُ يَرْفَعُ يَدَهُ بِالتَّحِيَّةِ، ويَسْأَلُ عَنْ حِصْنِ وِلْيَم هَنْري.

ضَحِكَ عَيْنُ الصَّقْرِ، وقالَ: «أَنْتُمْ بَعيدونَ جِدًّا عن طَريقِ ذلِكَ الحِصْنِ. ولَعَلَّ مِنَ الخَيْرِ لَكُمْ أَنْ تَسْلُكوا طَريقَ هذا النَّهْرِ الَّذي يُوْصِلُكُمْ إلى حِصْنِ إدْوَرْد.»

قالَ هيوَرْد: «نَحْنُ قادِمونَ من حِصْنِ إدْوَرْد. غادَرْناهُ صَباحًا بِصُحْبَةِ دَليلِنا الهِنْدِيِّ.»

بَدا عَيْنُ الصَّقْرِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ ما يَسْمَعُ، ثمّ قالَ: «هِنْدِيٌّ يَضيعُ في الغابَةِ؟ ذَلِكَ أَمْرٌ غَريبٌ. مِنْ أَيِّ قَبيلَةٍ هو؟»

«من قَبيلَةِ هورُن، ويُدْعى ماغُوا.»



قالَ عَيْنُ الصَّقْرِ: «إنَّ رِجالَ قَبيلَةِ هورُن مُخادِعونَ لا يُوْثَقُ بِهِمْ. سأُلْقي نَظْرَةً على دَليلِكُمْ هذا.»

اِلْتَفَتَ عَيْنُ الصَّقْرِ ناحِيَةَ ماغُوا الَّذي كانَ يَسْتَنِدُ إلى شَجَرَةٍ غَيْرِ بَعيدَةٍ، وقَدِ ارْتَسَمَتْ على وَجْهِهِ نَظَراتٌ قاسِيَةٌ حاقِدَةٌ.

قالَ عَيْنُ الصَّقْرِ: «إذا ذَهَبْتُ إليهِ فسَوْفَ يَتَسَرَّبُ الشَّكُّ إلى نَفْسِهِ ويَهْرُبُ. سأُرْسِلُ تشِنْغا وأُنْكاس لِمُباغَتَتِهِ والإمْساكِ به.»

لكِنْ في اللَّحْظَةِ الَّتي أَنْهى فيها عَيْنُ الصَّقْرِ كلامَهُ، اسْتَدارَ ماغُوا فَجْأَةً واخْتَفى بَيْنَ الأَشْجارِ. وقد أَذْهَلَتْ سُرْعَةُ اخْتِفائِهِ الجَميعَ. وبَحَثوا عنه كَثيرًا لكِنْ لم يَعْثُروا له على أَثَرٍ.

أَضْحَتْ جَماعَةُ هيوَرْد ضائِعَةً بِلا دَليلٍ ولا حِمايَةٍ. صَمَتَ الضّابِطُ الشّابُّ لَحَظاتٍ، ثمّ سَأَلَ عَيْنَ الصَّقْرِ وصاحِبَيْهِ إنْ كانوا يَقْبَلونَ أَنْ يُرافِقوهُمْ إلى حِصْنِ وِلْيَم هَنْري. وبَعْدَ شَيْءٍ مِنَ التَّباحُثِ في المَوْضوعِ وافَقَ عَيْنُ الصَّقْرِ وصاحِباهُ على القِيامِ بِالمُهِمَّةِ.

وكانَ اللَّيْلُ قد بَدَأَ يُرْخي سُدولَهُ، فأَخْرَجَ عَيْنُ الصَّقْرِ من بَيْنِ الأَشْجارِ المُحاذِيَةِ لِضَفَّةِ النَّهْرِ قارِبًا. رَكِبَ عَيْنُ الصَّقْرِ والضّابِطُ والشّابَّتانِ القارِبَ، أَمّا الهِنْدِيّانِ الأَحْمَرانِ فقد أَخَذا الجِيادَ لِيُخْفِياها بَيْنَ الأَشْجارِ في انْتِظارِ الصَّباحِ.



جَدَّفَ أَفْرادُ الجَماعَةِ بِالقارِبِ بِمُحاذاةِ النَّهْرِ، إلى أَنْ وَصَلوا إلى شَلّالاتِ غلِن، فَتَركوا القارِبَ إلى الضَّفَّةِ الصَّخْرِيَّةِ. وسُرْعانَ ما التَحَقَ بِهِما هُناكَ صاحِبا عَيْنِ الصَّقْرِ الهِنْدِيّانِ.

ثمُ تَوَجَّهَ عَيْنُ الصَّقْرِ وصاحِباهُ يَبْحَثونَ عن كَهْفٍ يَقْضونَ جَميعًا لَيْلَهُمْ فيه. وسُرْعانَ ما عادوا وقادوا الجَماعَةَ إلى كَهْفٍ واسِعٍ يَتَرَدَّدُ فيه صَوْتُ شَلّالاتٍ هادِرَةٍ. وكانَ الهِنْدِيّانِ قَدِ اصْطادا فَريسَةً فَأَشْعَلَ عَيْنُ الصَّقْرِ نارًا، وتناوَلوا جَميعًا طَعامَ العَشاءِ.

وكانَ أُنْكاس وأَبوهُ تشِنْغا مُتَشابِهَيْنِ، لكِنَّ أَليس كانَتْ مُعْجَبَةً بِمِشْيَةِ الهِنْدِيِّ الشّابِّ وتَصَرُّفاتِهِ الَّتي تَدُلُّ على تَرَفُّعٍ. وقد ذَكَرَتْ

لِأُخْتِها كورا، أَنَّها تَشْعُرُ بِالأَمانِ حينَ تكونُ في حِمايَةِ ذلِكَ الشّابِّ المُحارِبِ.

وبَعْدَ تَناوُلِ العَشاءِ، أُخْفِيَ مَدْخَلُ الكَهْفِ بِبَعْضِ أَغْصانِ الشَّجَرِ. ثمّ ذَهَبَتِ الأُخْتانِ تَنامانِ في زاوِيَةٍ من زَوايا الكَهْفِ الواسعِ، بَيْنَما تَناوَبَ الرِّجالُ على الحِراسَةِ طَوالَ اللَّيْلِ.

وقُبَيْلَ انْبِلاجِ الصَّباحِ أَيْقَظَ عَيْنُ الصَّقْرِ الضّابِطَ الشّابَّ، وأَخْبَرَهُ أَنَّهُ ذاهِبٌ لِلإِتْيانِ بِالقارِبِ إلى المكانِ الَّذي سيَنْطَلِقونَ منه، وأَنَّ الهِنْدِيَّيْنِ كِلَيْهِما سيَحْرُسانِ مَدْخَلَ الكَهْفِ. وقَرَّرَ الضّابِطُ، بَعْدَ ذَهابِ عَيْنِ الصَّقْرِ، أَنْ يوقِظَ الشّابَّتَيْنِ، ولكِنْ قَبْلَ أَنْ يُتاحَ له ذَلِكَ، سَمِعَ صَيْحاتٍ وصَخَبًا وأَصْواتَ طَلَقاتٍ نارِيَّةٍ.

مَلَأَ الجَوَّ ضَجيجٌ مُرْعِبٌ اسْتَمَرَّ نَحْوَ الدَّقيقَةِ الواحِدَةِ. لقد عادَ ماغْوا ومَعَهُ عَدَدٌ من أَفْرادِ قَبيلَتِهِ. وقامَ تشِنْغا وأُنْكاس بِإِطْلاقِ النّارِ على المُهاجِمينَ واشْتَبَكوا مَعَهُمُ اشْتِباكًا عَنيفًا. ووَقَفَ هيوَرْد قُرْبَ الفَتاتَيْنِ يَحْميهما ويَنْتَظِرُ بِلَهْفَةٍ عَوْدَةَ عَيْنِ الصَّقْرِ. وما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حتّى عادَ عَيْنُ الصَّقْرِ وبَدَأَ بِإِطْلاقِ النّارِ، فصَرَعَتْ رَصاصَتُهُ الأولى رَجُلًا مِنَ المُهاجِمينَ، فانْسَحَبَ الآخَرونَ، وعادَ الهُدوءُ يَسودُ المَكانَ.

قالَ عَيْنُ الصَّقْرِ: «هَيّا إلى الكَهْفِ، فرِجالُ الهورُن سيَعودونَ إلى الهُجومِ قَريبًا. إنَّ حَوْلَنا مِنْهُمْ نَحْوَ أَرْبَعينَ رَجُلًا.»

أَعادَ الرِّجالُ عِنْدَئِذٍ حَشْوَ مُسَدَّساتِهِمْ خَشْيَةَ أَنْ تكونَ رُطوبَةُ جَوِّ الشَّلّالاتِ قد بَلَّلَتِ البارودَ.

فَجْأَةً بَرَزَ أَرْبَعَةٌ من هُنودِ الهورُن من مَكْمَنٍ لَهُمْ وانْدَفعوا في اتِّجاهِ الكَهْفِ. أَطْلَقَ تشِنْغا وأُنْكاس النّارَ فسَقَطَ اثْنانِ مِنَ المُهاجِمينَ صَريعَيْنِ. وانْقَضَّ المُهاجِمانِ الآخَرانِ على عَيْنِ الصَّقْرِ وهيوَرْد.



تَمَكَّنَ عَيْنُ الصَّقْرِ من قَتْلِ خَصْمِهِ، أَمّا هيوَرْد فقَدِ اشْتَبَكَ مَعَ مُهاجِمِهِ في قِتالٍ مَريرٍ، ووَصَلَ الرَّجُلانِ في عِراكِهِما إلى حافَّةِ جُرُفٍ (مُنْحَدَر) صَخْرِيٍّ عالٍ. وكانَ السُّقوطُ فَوْقَ ذلِكَ الجُرُفِ يَعْني مَوْتًا مُحَقَّقًا.

وفي اللَّحْظَةِ الَّتي أَحَسَّ فيها هيوَرْد أَنَّهُ وخَصْمَهُ سيَقَعانِ كِلاهُما في الهاوِيَةِ ارْتَفَعَتْ سِكّينُ أُنْكاس تَلْمَعُ في الشَّمْسِ. وسُرْعانَ ما تَراخَتْ يَدُ الخَصْمِ وهَوى من فَوْقِ الجُرُفِ.

نَظَرَ أُنْكاس وهيوَرْد أَحَدُهُما في الآخَرِ ثُمّ تَصافَحا بِقُوَّةٍ. وفي هذِهِ اللَّحْظَةِ صاحَ عَيْنُ الصَّقْرِ: «اِحْتَموا وَراءَ الصُّخورِ!»





وما إنْ فَعَلوا حَتّى عَلا أَزيزُ رَصاصَةٍ أَصابَتْ صَخْرَةً قَريبَةً من هيوَرْد. وقد أَطْلَقَ الرَّصاصَةَ هِنْدِيٌّ تَسَلَّقَ شَجَرَةً عالِيَةً في الضَّفَّةِ المُقابِلَةِ لِلنَّهْرِ. مَضى وَقْتٌ طَويلٌ قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَ الهِنْدِيُّ عن مَكانِهِ بِإِطْلاقِ رَصاصَةٍ أُخْرى. صَوَّبَ عَيْنُ الصَّقْرِ بُنْدُقِيَّتَهُ تَصْويبًا دَقيقًا وأَطْلَقَ النّارَ، فَسَقَطَ الهِنْدِيُّ في ماءِ النَّهْرِ المُتَدَفِّقِ.

أَرْسَلَ عَيْنُ الصَّقْرِ صاحِبَهُ أُنْكاس لِيَأْتِيَ مِنَ القارِبِ بِبارودٍ لِلبَنادِقِ.



لكِنَّ أُنْكاس وَصَلَ مُتَأَخِّرًا فقد رَأى عِنْدَ وُصولِهِ أَحَدَ هُنودِ الهورُن يَشُدُّ القارِبَ ويَبْتَعِدُ به.

قالَ عَيْنُ الصَّقْرِ: «لا قيمَةَ لِبَنادِقِنا بِغَيْرِ بارودٍ. سَنَموتُ كُلُّنا، لِأَنَّ رِجالَ الهورُن سيَكونونَ في انْتِظارِنا عِنْدَ كُلِّ مَمَرٍّ. ما مِنْ مَهْرَبٍ إلّا طريقَ النَّهْرِ، حَيْثُ يُمْكِنُ التَّحَرُّكُ فيه سِباحَةً مَعَ مَجْرى التَّيّارِ.

لِكِنّا لا نَسْتَطيعُ أَنْ نَتْرُكَ الآنِسَتَيْنِ هُنا.»

أَسْرَعَتْ كورا تَقولُ: «بَلْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتْرُكونا. ويُمْكِنُ أَنْ يَبْقى هيوَرْد مَعَنا، أَمّا أَنْتُمُ الثَّلاثَةُ فتُحاوِلونَ الوُصولَ إلى حِصْنِ وِلْيَم هَنْري لِتَعودوا من عِنْدِ أبي بِالنَّجْدَةِ.»

وبَعْدَ كَثيرٍ مِنَ الجَدَلِ وعَرْضِ الآراءِ اتُّفِقَ على أَنَّ الحَلَّ الَّذي اقْتَرَحَتْهُ كورا هو أَفْضَلُ الحُلولِ. قَفَزَ عَيْنُ الصَّقْرِ وصاحِباهُ في النَّهْرِ الواحِدُ بَعْدَ الآخَرِ. وعادَتِ الأُخْتانِ إلى الكَهْفِ بِصُحْبَةِ هيوَرْد.

قالَتْ أَليس: «نَحْنُ هُنا في أَمانٍ، فحَتّى لو عادَ هُنودُ الهورُن فإنَّ هذا الكَهْفَ خَفِيٌّ.»

لكِنْ لم يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ على ذلِكَ حتّى سَمِعوا أَصْواتَ هُنودِ الهورُن آتِيَةً من خارِجِ الكَهْفِ. وبَعْدَ دقائِقَ سَمِعوا هَمْهَماتِهِم تَتَرَدَّدُ في كَهْفٍ مُجاوِرٍ. ثُمَّ، وبَعْدَ صَمْتٍ قَصيرٍ، انْدَفَعَ الهُنودُ فَجْأَةً إلَى الكَهْفِ الَّذي كانوا هُم فيه، وأَسَروهم جَميعًا وجَرّوهم إلى الخارِجِ.

تَطَلَّعَ ماغُوا إلى الجَماعَةِ ثمّ سَأَلَ: «أَيْنَ جُثَثُ الثَّلاثَةِ الآخَرينَ؟»

أَجابَ هيوَرْد: «لم يَموتوا، بَلْ فَرّوا إلى حَيْثُ يَأْتونَ بِالنَّجْدَةِ.»

اِنْدَفَعَ رِجالُ الهورُن ناحِيَةَ النَّهْرِ، ورَأَوْا أَنَّ أَعْداءَهُمْ قَد نَجَوْا، فَراحوا يَصْرُخونَ مُهْتاجينَ. ثمّ رَمَوا هيوَرْد والآنِسَتَيْنِ بِنَظَراتٍ تَتَّقِدُ بِشَهْوَةِ الانْتِقامِ. لَكِنَّ ماغُوا اسْتَطاعَ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهِمْ وأَمَرَ أَنْ يُنْقَلَ الأَسْرى الثَّلاثَةُ إلى الضَّفَّةِ الأُخْرى مِنَ النَّهْرِ.

في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ النَّهْرِ انْقَسَمَ رِجالُ الهورُن إلى مَجْموعَتَيْنِ.

وأَبْقى ماغُوا مَعَهُ خَمْسَةَ رِجالٍ لِحِراسَةِ الأَسْرى. رَكِبَتْ كُلٌّ مِنَ الأُخْتَيْنِ حِصانًا، ومَشى ماغُوا في طَليعَةِ الجَماعَةِ. وبَعْدَ مَسيرَةٍ طَويلَةٍ تَوَقَّفَ الرَّكْبُ، وطَلَبَ ماغُوا من هيوَرْد أَنْ يُرْسِلَ كورا إِلَيْهِ.





لَمْ تَكُنْ كورا تَعْلَمُ سَبَبَ اسْتِدْعاءِ ماغُوا لها، فوَقَفَتْ أَمامَهُ صامِتَةً تَنْتَظِرُ أَنْ يَبْدَأَ هو الكَلامَ.

وبَعْدَ صَمْتٍ قالَ ماغُوا: «يا ابْنَةَ مونْرو، لقد رَبَطَني أَبوكِ مَرَّةً إلى

عَمودٍ، أنا زَعيمُ الهورُن، وأَمَرَ بِجَلْدي، وتَرَكَتِ السِّياطُ على ظَهْري آثارًا تُذَكِّرُني بِعارِ الجَلْدِ.»

قالت كورا: «لِمَ تُخْبِرُني ذلِكَ؟»

«أُريدُكِ أَنْ تَعيشي في خَيْمَتي زَوْجَةً لي، فيَعْرِفَ مونْرو أَنَّ ابْنَتَهُ تَحْمِلُ الماءَ إلى ماغُوا، وتُعِدُّ له طَعامَهُ وتُنَظِّفُ خَيْمَتَهُ. وسيُحْزِنُهُ ذلِكَ كَثيرًا.»

أَجابَتْ كورا: «لَنْ أَفْعَلَ ذلِكَ أَبَدًا!»

تَطَلَّعَ ماغُوا إلَيْها بِبُرودٍ، ثمّ الْتَفَتَ إلى رِجالِهِ وتَحَدَّثَ إلَيْهِمْ. بَدا رِجالُ الهورُن مُهْتاجينَ ثمّ انْدَفَعوا ناحِيَةَ هيوَرْد وأَليس وكورا فأَمْسَكوهُمْ وجَرّوهُمْ إلى بَعْضِ الأَشْجارِ القَريبَةِ ورَبَطوهُمْ إلَيْها، وارْتَدّوا قَليلًا إلى الوَراءِ.

وفَجْأَةً، رَمى ماغُوا فَأْسَهُ، وهو يَصيحُ صَيْحَةً عالِيَةً. اِسْتَقَرَّتِ الفَأْسُ فَوْقَ رَأْسِ أَليس مُباشَرَةً وقَصَّتْ بَعْضَ خُصَلِ شَعْرِها. في هذِهِ اللَّحْظَةِ تَمَكَّنَ هيوَرْد من الإفْلاتِ فانْقَضَّ على الهِنْديّ الثّاني الَّذي كانَ يَسْتَعِدُّ لِرَمْيِ فَأْسِهِ. ووَقَعَ الرَّجُلانِ أَرْضًا يَتَصارَعانِ، وفي اللَّحْظَةِ الَّتي اسْتَلَّ فيها الهِنْدِيُّ سِكّينَهُ عَلا أَزيزُ رَصاصَةٍ اسْتَقَرَّتْ في جَسَدِهِ فوَقَعَ صَريعًا.

أُخِذَ ماغُوا والهُنودُ الأَرْبَعَةُ المُتَبَقّونَ على حينِ غِرَّةٍ عِنْدَما انْقَضَّ عَلَيْهِمْ مِن وَراءِ الأَشْجارِ عَيْنُ الصَّقْرِ وتشِنْغا وأُنْكاس. ونَشِبَ قِتالٌ قَصيرٌ، أَسْفَرَ عن مَقْتَلِ رِجالِ الهورُن الأَرْبَعَةِ، وسُقوطِ زَعيمِهِمْ ماغُوا على الأَرْضِ بِضَرْبَةٍ من عَقِبِ بُنْدُقِيَّةِ عَيْنِ الصَّقْرِ.

تَعانَقَتِ الأُخْتانِ، بَعْدَ نَجاتِهِما مِن مَوْتٍ مُحَقَّقٍ، وبَكَتا بُكاءَ الانْفِراجِ.

ثُمَّ رَوى عَيْنُ الصَّقْرِ كَيْفَ أَنَّهُ وصاحِباهُ سَمِعوا صَيْحاتِ رجالِ الهورُن، فعادوا وراقَبوا ما يَحْدُثُ، وتَبِعوا الهُنودَ من مَسافَةٍ آمِنَةٍ في انْتِظارِ اللَّحْظَةِ المُناسِبَةِ لِلهُجومِ. وبَيْنَما كانَ عَيْنُ الصَّقْرِ يَرْوي حِكايَتَهُ، انْتَصَبَ ماغُوا، الَّذي كانَ يَتَظاهَرُ بِفِقْدانِ الوَعْيِ، وَأَطْلَقَ ساقَيْهِ لِلرّيحِ، وسُرْعانَ ما اخْتَفى عَنِ الأَنْظارِ. وأَرادَ تشِنْغا وأُنْكاس أَنْ يَلْحقا به لكِنَّ عَيْنَ الصَّقْرِ أَوْقَفَهُما.

وسُرْعانَ ما انْطَلَقَتِ الجَماعَةُ ثانِيَةً في اتِّجاهِ حِصْنِ وِلْيَم هَنْري.

مَشى عَيْنُ الصَّقْرِ في الطَّليعَةِ، ورَكِبَتْ كُلٌّ مِنَ الأُخْتَيْنِ حِصانًا.

وعِنْدَ هُبوطِ الظَّلامِ، أَخَذَهُمْ عَيْنُ الصَّقْرِ إلى مَنْزِلٍ مُتداعٍ مُتَوارٍ بَيْنَ الأَشْجارِ، وقالَ:

«سنَرْتاحُ هُنا.»

ما كادوا يَسْتَقِرّونَ في المَنْزِلِ حتّى دَخَلَ عَلَيْهِم تشِنْغا الّذي كانَ عَلَيْهِ النَّوْبَةُ الأولى في الحِراسَةِ، وأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَسْمَعُ أَصْواتًا قَريبَةً.

هَمَسَ عَيْنُ الصَّقْرِ قائلًا: «أَدْخِلوا الحِصانَيْنِ إلى المَنْزِلِ والزَموا جَميعًا الصَّمْتَ.»





كانَ في الجِوارِ نَحْوُ عِشْرينَ من رِجالِ الهورُن. وقد أَخَذوا يَقْتَرِبونَ مِنَ المَنْزِلِ حتّى بَلَغوا منه حَدًّا باتَ يُخشى معه أَنْ يَسْمَعوا صَوْتَ تَنَفُّسِ الحِصانَيْنِ. ثمّ أَخَذَتْ أَصْواتُهُمْ تَخْبو وتَضْعُفُ. فقد رَأَوْا حَوْلَ المَنْزِلِ مَدافِنَ فابْتَعَدوا عَنِ المَكانِ احْتِرامًا لِلمَوْتى.

أَخيرًا خَيَّمَ الهُدوءُ، وتَأَكَّدَ أَنَّ الهُنودَ قَدِ ابْتَعَدوا، فخَرَجَتِ الجَماعَةُ مِنَ المَنْزِلِ وزَحَفَ أَفْرادُها في الظَّلامِ إلى ضَفَّةِ الجَدْوَلِ القَريبِ. وهنا عادَتِ الأُخْتانِ إلى رُكوبِ الحِصانَيْنِ.

قالَ عَيْنُ الصَّقْرِ: «الآنَ نَمْشي في الماءِ، فلا نَتْرُكُ أَثَرًا.»

مَشَوْا في الماءِ نَحْوَ السّاعَةِ، وَجَدوا بَعْدَها أَنَّ ضَفَّةَ النَّهْرِ صارَتْ رَمْلِيَّةً كَثيرَةَ الأَشْجارِ، فخَرَجوا مِنَ الماءِ، وسارَ عَيْنُ الصَّقْرِ في الطَّليعَةِ هذِهِ المَرَّةَ أَيْضًا، وقالَ:

«إنَّ الطَّريقَ من هنا إلى حِصْنِ ولْيَم هَنْري طَويلٌ وشاقٌّ، لكِنّي أَعْرِفُه مَعْرِفَةً تامَّةً. سنتَّجِهُ غَرْبًا عَبْرَ الجَبَلِ، وعَلَيْنا أَنْ نكونَ في يَقْظَةٍ دائِمَةٍ لِئَلّا نَقَعَ في أَيْدي جُنودِ القائِدِ الفَرَنْسِيِّ مونْتكالم.»

تابَعوا مَسيرَتَهُمْ بِحَذَرٍ شَديدٍ، وزادَتِ النُّتوءاتُ الصَّخْرِيَّةُ والمُنْحَدَراتُ الشَّديدَةُ مِنَ الصُّعوباتِ الَّتي واجَهَتْهُمْ. وعِنْدَما وَصَلوا إلى قِمَّةٍ مُنْبَسِطَةٍ مَكْسُوَّةٍ بِالطُّحْلُبِ، طَلَب عَيْنُ الصَّقْرِ مِنَ الأُخْتَيْنِ أَنْ تَتَرَجَّلا عَنِ الحِصانَيْنِ، قائِلًا:

«عَلَيْنا أَنْ نُعْتِقَ الحِصانَيْنِ، فلا يَسْتَطيعانِ الاِسْتِمْرارَ مَعَنا بَعْدَ الآنَ.»



كانوا قادِرينَ، من مَوْقِعِهِم المُرْتَفِعِ ذاكَ، أَنْ يَرَوا الشّاطِئَ الجَنوبِيَّ لِبُحَيْرَةِ هوريكان حَيْثُ يَقَعُ حِصْنُ وِلْيَم هَنْري. لكِنَّ الأَنْظارَ كُلَّها اتَّجَهَتْ ناحِيَةَ مِدْفَعِيَّةِ الجِنرالِ الفَرَنْسِيِّ مونتْكالم الَّذي كانَ قد دَفَعَ بِقُوّاتِهِ إلى مَكانٍ قَريبٍ جِدًّا مِنَ الحِصْنِ.

قالَ عَيْنُ الصَّقْرِ لِلأُخْتَيْنِ مُطَمْئِنًا: «لا تَخافا. فأنا وصاحِبايَ سَنُوْصِلُكُما إلى أَبيكُما سالِمَتَيْنِ. يَبْدو أَنَّ الضَّبابَ الكَثيفَ مُقْبِلٌ عَلَيْنا، وهَذا يُساعِدُنا كَثيرًا.»

نَزَلَ أَفْرادُ الجَماعَةِ سَفْحًا شَديدَ الانْحِدارِ وَصَلوا بَعْدَهُ إلى أَرْضٍ مُنْبَسِطَةٍ. وكانَ الضَّبابُ في ذَلِكَ الوَقْتِ يَتَحَرَّكُ تَحَرُّكًا سَريعًا فانْتَظَروا إلى أَنْ غَطّى مُعَسْكَرَ الفَرَنْسِيّينَ.

كانوا يَسْمَعونَ في انْتِقالِهِم الحَذِرِ أَصْواتَ كَلامٍ بالفَرَنْسِيَّةِ وبِلُغَةِ الهورُن، وأَصْواتَ طَلَقاتٍ نارِيَّةٍ وقَنابِلَ مِدْفَعِيَّةٍ. وكانَ عَيْنُ الصَّقْرِ طَوالَ ذَلِكَ الوَقْتِ يَزْدادُ اقْتِرابًا بِجَماعَتِهِ مِنَ الحِصْنِ.

فَجْأَةً سَمِعَ أَفْرادُ الجَماعَةِ صَوْتًا قَريبًا مِنْهُمْ. وكانَ صَوْتَ الجنرالِ مونْرو، والِدِ الشّابَّتَيْنِ! نادَتْ أَليس وكورا أَباهُما عَبْرَ الضَّبابِ، وما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حتّى كانَ عَدَدٌ من جُنودِ الحِصْنِ قد خَرَجوا إلى أَفْرادِ الجَماعَةِ وعادوا بِهِمْ كُلِّهِمْ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ.



طَغَتِ الفَرْحَةُ على الابْنَتَيْنِ وأَبيهِما، ونَسَوْا في الأَيّامِ القَليلَةِ التّالِيَةِ الأَخْطارَ الَّتي كانَتْ تُحْدِقُ بِهِمْ. نَسَوْا مونْتكالم والجُنودَ الفَرَنْسِيّينَ والمُحارِبينَ الهُنودَ الَّذينَ كانوا يُحاصِرونَ الحِصْنَ.

وكانَ الخَطَرُ على الحِصْنِ شَديدًا، فهو مُحاصَرٌ وتَنْقُصُهُ وسائِلُ الدِّفاعِ. وكانَ قائِدُ الحِصْنِ الجِنِرالُ مونْرو لا يَزال يَنْتَظِرُ الإمْدادات من قائِدِ حامِيَةِ حِصْنِ إدْوَرْد.

في اليَوْمِ الثّالِثِ أَرْسَلَ مونْتكالم رِسالَةً يَقولُ فيها إنَّهُ يَرْغَبُ في التَّفاوُضِ. فقَرَّرَ الجِنِرالُ مونْرو إرْسالَ الضّابِطِ هيوَرْد دَنْكِن مَنْدوبًا عَنْهُ. خَرَجَ هيوَرْد مِنَ الحِصْنِ يَحْمِلُ رايَةَ الهُدْنَةِ البَيْضاءَ، فقابَلَهُ ضابِطٌ فَرَنْسيٌّ قادَهُ مُباشَرَةً إلى الجِنِرالِ مونْتكالم.

دَخَلَ هيوَرْد خَيْمَةَ القائِدِ الفَرَنْسِيِّ، ونَظَر حَوْلَهُ بِاهْتِمامٍ. وكانَ يُحيطُ بِالقائِدِ كِبارُ ضُبّاطِهِ وزُعَماءُ بَعْضِ القَبائِلِ الهِنْدِيَّةِ، ومن بَيْنِهم ماغُوا. وكانَ القائِدُ الفَرَنْسِيُّ شَديدَ التَّهْذيبِ في حَديثِهِ، قالَ:

«قائِدُكُم رَجُلٌ شُجاعٌ. لكِنْ حَقْنًا لِلدِّماءِ أَعْرِضُ عَلَيْكُمُ الاِسْتِسْلامَ لِيَ الآنَ. لا أَقْدِرُ أَنْ أُبْعِدَ عَنْكُمْ هؤلاءِ الهُنودَ الغاضِبينَ أَكْثَرَ مِمّا فَعَلْتُ. ولو سَمَحْتُ لَهُمْ بِالاِنْقِضاضِ عَلَيْكُمْ فسيَذْبَحونَكُمْ جَميعًا. لِنَتَحَدَّثْ إذًا عن شُروطِ الاِسْتِسْلامِ.»

أجابَ هيوَرْد: «إنَّ إمْداداتٍ قَوِيَّةً في طَريقِها إلَيْنا.» ولم يَفْهَمْ مَعْنًى لِلاِبْتِسامَةِ الَّتي ارْتَسَمَتْ على وَجْهِ مونْتكالم.

تَباحَثَ الرَّجُلانِ طَويلًا، لكِنَّ أَيًّا مِنْهُما لَم يَقْتَنِعْ بِكَلامِ الآخَرِ، فقامَ هيوَرْد اسْتِعْدادًا لِلعَوْدَةِ. عِنْدَئِذٍ أَخْرَجَ مونْتكالم رِسالَةً انْتَزَعَها رِجالُهُ من رَسولٍ كانَ يحْمِلُها إلى الجِنِرالِ مونْرو. وكانَ كاتِبُ الرِّسالَةِ هو قائِدَ حامِيَةِ حِصْنِ إدْوَرْد المُؤَمِّلَ وُصولُهُ على رَأْسِ الإمْداداتِ المَطْلوبَةِ.





جاءَ في الرِّسالَةِ أَنَّهُ يَسْتَحيلُ على حِصْنِ إدْوَرْد إرْسالُ أَيَّةِ إمْداداتٍ، وأَنَّهُ يَنْصَحُ الجِنِرالَ مونْرو بِالاِسْتِسْلامِ الفَوْرِيِّ. بَدا الاِكْتِئابُ على وَجْهِ هيوَرْد، لكِنَّ الجِنِرالَ مونْتكالم كانَ كَريمًا، فقالَ: «أَسْمَحُ لَكُمْ بِالخُروجِ مِنَ الحِصْنِ خُروجًا عَسْكَرِيًّا مُشَرِّفًا، فتَنْقُلونَ مَعَكُمْ أَسْلِحَتَكُمْ كُلَّها وتَسيرونَ في ظِلِّ راياتِكُمْ. وبَعْدَ خُروجِكُمْ جَميعًا أُدَمِّرُ الحِصْنَ. فلا يَتَأَذّى مِنْكُمْ أَحَدٌ.»

قَبِلَ الجِنِرالُ مونْرو شُروطَ القائِدِ الفَرَنْسِيِّ، ووَقَّعَ وَثيقَةً يُوافِقُ فيها على مُغادَرَةِ الحِصْنِ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي.



لَكِنَّ ماغُوا، زعيمَ قَبيلَةِ الهورُن، لم يَكُنْ راضِيًا، فتَمْتَمَ قائلًا: «يَرْحَلُ الإنجليز الآن آمِنينَ. لَمْ يَعُدِ الفَرَنْسِيّونَ يَعْتَبِرونَهُمْ أَعْداءً. أَمّا أنا فلا أَزالُ أَعْتَبِرُهُمْ أَعْدائي، وسأَنْتَقِمُ مِنْهُمْ.»

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، خَرَجَ الجُنود الإنجليز من حِصْنِهِمْ في صُفوفٍ عَسْكَرِيَّةٍ مُنْتَظِمَةٍ، واتَّجَهوا ناحِيَةَ الخُطوطِ الفَرَنْسِيَّةِ لِلقِيامِ بِعَمَلِيَّةِ الاِسْتِسْلام الرَّسْمِيَّةِ. وبَعْدَ مُضِيِّ بَعْضِ الوَقْتِ، تَرَكَ الجَرْحى والنِّساءُ الحِصْنَ بِرِعايَةِ بِضْعَةِ جُنودٍ.

وبَعْدَ أَنْ مَشَتْ هَذِهِ الجَماعَةُ مَسافَةً قَصيرَةً، لاحَظَتْ كورا أَنَّ ماغُوا ورِجالَهُ يُراقِبونَ من مَكانٍ قَريبٍ. وكانَ لا يَزالُ بَيْنَ الجماعَةِ والفَرَنْسِيّينَ، بِقِيادَةِ مونْتكالم، مَسافَةٌ غَيْرُ قَصيرَةٍ.

فَجْأَةً انْدَفَعَ أَحَدُ رِجالِ الهورُن وقَتَلَ بِفَأْسِهِ امْرَأَةً وطِفْلَها. في تِلْكَ الأَثْناءِ أَعْطى ماغُوا إشارَةً فَخَرَجَ من بَيْنِ أَشْجارِ الغابَةِ أَكْثَرُ من أَلْفَي رَجُلٍ من مُقاتِلي الهورُن. وانْقَضَّ المُقاتِلونَ على أولَئِكَ العُزَّلِ وأَعْمَلوا فيهِمْ تَقْتيلًا.

أَسْرَعَ ماغُوا نَفْسُهُ إلى أَليس وكورا وأَخَذَهُما أَسيرَتَيْنِ. وقالَ لِكورا: «تعالَيْ، فإنَّ خَيْمَتي لا تَزالُ في انْتِظارِكِ.» وقَفَتْ كورا صامِتَةً وقد عَقَدَ لِسانَها مَنْظَرُ الدَّمِ على يَدَيْهِ وذِراعَيْهِ. جَرَّ ماغُوا الأُخْتَيْنِ إلى الأَشْجارِ القَريبَةِ ووَضَعَهُما كِلْتَيْهِما على حِصانٍ واحِدٍ، وقادَهُما في مَمَرٍّ عَبْرَ الغابَةِ. وكانَتْ أَليس قد أُصيبَتْ في أَثْناءِ ذَلِكَ بِالدُّوارِ. وتَوَقَّفَ ماغُوا في قِمَّةِ التَّلَّةِ الَّتي كانَ عَيْنُ الصَّقْرِ قد وَقَفَ عِنْدَها قَبْلَ بِضْعَةِ أَيّامٍ. ومن فَوْقِ تِلْكَ التَّلَّةِ راحَتِ الأُخْتانِ المَذْعورَتانِ تُراقِبانِ المَذْبَحَةَ في أَسْفَلِ الوادي.

وبَعْدَ وَقْتٍ طَويلٍ، أَخَذَتْ أَنّاتُ الجَرْحى، وصُراخُ المَذْعورينَ، وصَيْحاتُ الحَرْبِ الَّتي يُطْلِقُها المُهاجِمونَ، تَخِفُّ رُوَيْدًا رُوَيْدًا إلى أَنْ تَلاشَتْ، وسادَ المَكانَ صَمْتٌ رَهيبٌ.

وبَعْدَ حينٍ، وَصَلَ عَيْنُ الصَّقْرِ وتشِنْغا وأُنْكاس ومونْرو وهيوَرْد إلى مَكانِ المَذْبَحَةِ المُريعَةِ، وراحوا يَبْحَثونَ بَيْنَ الجُثَثِ عن أَليس وكورا. وكانوا جَميعًا يُحاوِلونَ إخْفاءَ مَرارَتِهِمْ وذُعْرِهِمْ وهم يَتَأَمَّلون

فِي وُجوهِ النِّساءِ، واحِدَة بَعْدَ الأُخْرى. ثمّ وَجَدَ أُنْكاس قِطْعَةً من مِنْديلِ كورا الأَخْضَرِ عالِقَةً في جَنْبَةٍ (شُجَيْرةٍ) قَريبَةٍ.

هتَفَ الجِنِرالُ بِشَيْءٍ مِنَ الأَمَلِ: «إنَّها حَيَّةٌ!»

فقالَ عَيْنُ الصَّقْرِ: «نَعَمْ، وإذا نَحْنُ تَبِعْنا الأَثَرَ بِحَذَرٍ شَديدٍ فقد نَتَمَكَّنُ من إنْقاذِها. لكِنْ عَلَيْنا أَنْ نَتوخّى الصَّبْرَ.»

تَفَحَّصَ تشِنْغا المَكانَ جَيِّدًا، ثمّ قالَ: «ماغُوا أَخَذَها.»



كانَ البَحْثُ بَطيئًا وشاقًّا. لكِنَّهُمْ سُرْعانَ ما وَجَدوا قِطْعَةً من عِقْدٍ، فبَعَثَ ذلِكَ في قُلوبِهِمْ أَمَلًا جَديدًا. عَرَفَ هيوَرْد قِطْعَةَ العِقْدِ على الفَوْرِ فهي تَخُصُّ أَليس. واغْرَوْرَقَتْ عَيْنا الأَبِ بِالدُّموعِ.

بَعْدَ هُبوطِ الظَّلامِ تَناوَلوا عَشاءَهُمْ مِنَ اللُّحومِ المُجَفَّفَةِ، وأَخْلَدوا إلى الرّاحَةِ في مَكانٍ غَيْرِ بَعيدٍ عَنِ الحِصْنِ المُدَمَّرِ. وفي الصَّباحِ التّالي أَيْقَظَ عَيْنُ الصَّقْرِ هيوَرْد ومونْرو وقالَ لَهُما: «عَلَيْنا أَنْ نكونَ شَديدي الحَذَرِ، فالأَعْداءُ الآنَ من أمامِنا ومن ورائِنا.»



ذَهَبَ أُنْكاس وتشِنْغا إلى طَرَفِ البُحَيْرَةِ القَريبِ مِنَ الحِصْنِ وعادا بِقارِبٍ. رَكِبَ الرِّجالُ القارِبَ وانْطَلَقوا به في مِياهِ بُحَيْرَةِ هوريكان الهادِئَةِ. وحِرْصًا مِنْهُمْ على التَّخَفّي، حافَظوا على خَطِّ سَيْرِهِمْ بِمُحاذاةِ الشّاطِئِ قَريبًا مِنَ الجُزُرِ الصَّغيرَةِ الكَثيرَةِ الأَشْجارِ.

ووَصَلوا في أَواخِرِ النَّهارِ إلى الجانِبِ الشَّمالِيِّ مِنَ البُحَيْرَةِ، فخَرَجوا مِنَ الماءِ وحَمَلوا مَعَهُمُ القارِبَ، ومَشَوْا. وكانوا يَبْغونَ من وَراءِ ذَلِكَ أَنْ يَتْرُكوا أَثَرًا خادِعًا. لِذا فإِنَّهُمْ نَزَلوا في جَدْوَلِ ماءٍ ومَشَوا فيه عائِدينَ إلى البُحَيْرَةِ، حَيْثُ رَكِبوا القارِبَ ثانِيَةً واتَّجَهوا بِهِ إلى الشّاطِئِ الغَرْبِيِّ. وهُنا خَرَجوا إلى البَرِّ وأَخْفَوا القارِبَ تَحْتَ كَوْمَةٍ مِنَ الأَغْصانِ، وأَقاموا لَيْلَتَهُمْ في ذَلِكَ المَكانِ.



في صَباحِ اليَوْمِ التّالي قادَ عَيْنُ الصَّقْرِ أَصْحابَهُ إلى غابَةٍ شائِكَةٍ غَيْرِ مَطْروقَةٍ، كانَ وصاحِباهُ الهِنْدِيّانِ يَعْرِفونَ طَريقَهُمْ فيها.

مَشَوْا أَمْيالًا في الغابَةِ دونَ أَنْ يَعْثُروا لِلأُخْتَيْنِ على أَثَرٍ. ثمّ أَشارَ أُنْكاس إلى بَعْضِ العَلامات، وقالَ: «لقد أَخَذوهُما إلى جانِبٍ آخَرَ مِنَ الغابَةِ.»

تابَعوا سَيْرَهُمْ بِبُطْءٍ، فماغُوا ورِجالُهُ كانوا هم أَيْضًا قد تَرَكوا بَعْضَ الآثارِ الخادِعَةِ. لكِنْ لم يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ خِداعُ عَيْنِ الصَّقْرِ وصاحِبَيْهِ طَويلًا. وبُعَيْدَ الظُّهْرِ بَلَغَ الثَّلاثَةُ جَدْوَلًا كَبيرًا فساروا فيه حتّى حَلَّ المَساءُ.

وَصَلوا، عِنْدَ هُبوطِ الظَّلامِ، إلى مِنطَقَةٍ واسِعَةٍ في الغابَةِ تَزْدَحِمُ بِبُيوتِ الهُنودِ ويَحومُ في أَرْجائِها بَعْضُ الرِّجالِ. زادَ عَيْنُ الصَّقْرِ وأَصحابُهُ من حَذَرِهِمْ وأَخَذوا يَتَشاوَرونَ في الأَمْرِ. قَرَّروا أَنْ يَذْهَبَ مونْرو إلى مَخْبَإٍ قَريبٍ يَعْرِفونه ويَذْهَبَ مَعَهُ تشِنْغا لِحِمايَتِه. ورَأَوْا أَنْ يَذْهَبَ كُلٌّ مِنْ عَيْنِ الصَّقْرِ وَأُنْكاس في اتِّجاهٍ لِلْحُصولِ عَلَى أَكْبَرِ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ المَعْلوماتِ عن تَحَرُّكاتِ الهورُن وما يَنْوون فِعْلَهُ.

عَرَضَ هيوَرْد عِنْدَ ذاكَ أَنْ يَقومَ بِعَمَلٍ بالِغِ الخُطورَةِ، وَهُوَ أَنْ يَطْلِيَ وَجْهَهُ بِحَيْثُ يَبْدو كَأَحَدِ أُولَئِكَ الرِّجالِ الجَوّالينَ الَّذينَ يَتَنَقَّلونَ بَيْنَ القُرى لِلتَّرْفيهِ عَنِ النّاسِ. ورَأى أَنَّ مَعْرِفَتَهُ بِاللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ سَتُقْنِعُ هُنودَ

الهورُن أَنَّهُ صَديقٌ. فإذا تَمَكَّنَ من دخولِ القَرْيَةِ سَهُلَ عَلَيْهِ أَمْرُ البَحْثِ عن أَليس وكورا. لم تَرُق الفِكْرَةُ لِأَصْدِقائِهِ، لَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَيْها بِعِنادٍ قائِلًا: «إذا كانَتِ الأُخْتانِ في مَكانٍ ما من تِلْكَ القَرْيَةِ، فَعَلَيَّ أَنْ أُحاوِلَ إنْقاذَهُما، أَيًّا كانَتِ المَخاطِرُ.»

وهكَذا، طَلى تشِنْغا وَجْهَ هيوَرْد بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ، فبَدا وكأَنَّهُ وَجْهُ مُمَثِّلٍ تَرْفيهِيٍّ أَصيلٍ. وأَطْلَعَ عَيْنُ الصَّقْرِ الضّابِطَ الشّابَّ على إشاراتٍ وأَصْواتٍ يَتَفاهَمونَ بِها في الغابَةِ، كما عَيَّنَ له المَكانَ الَّذي سَيَلْتَقونَ فيه. وبَعْدَ أَنْ تَوَضَّحَتْ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مُهِمَّتُهُ، تَسَلَّلَ أُنْكاس بَيْنَ الأَشْجارِ وانْطَلَقَ يَبْحَثُ عن ماغُوا. ومَضى عَيْنُ الصَّقْرِ في اتِّجاهٍ آخَرَ.



ما إنْ دَخَلَ هيوَرْد قَرْيَةَ الهُنودِ حتّى أَحَسَّ بِحَقيقَةِ الخَطَرِ الَّذي يَتَهَدَّدُهُ. وكانَ الظَّلامُ آنَذاكَ قَدِ انْتَشَرَ. وعِنْدَما وَصَلَ إلى الخِيامِ التَقى بَعْضَ الأَوْلادِ. اِلْتَفَتَ إلَيْهِ الأَوْلادُ لكِنْ لم يَبْدُ أَنَّهُمُ ارْتابوا به. وفي وَسَطِ القَرْيَةِ كانَ بَعْضُ الشُّيوخِ يَجْلِسونَ حَوْلَ نارٍ. وبَدا كَأَنَّ أَحَدَهُمْ زَعيمٌ من زُعَمائِهِم. خاطَبَ ذلِكَ الزَّعيمُ هيوَرْد بِلُغَةِ الهورُن فرَدَّ عَلَيْهِ هيوَرْد بِالفَرَنْسِيَّةِ. فسَأَلَ الزَّعيمُ بِالفَرَنْسِيَّةِ قائِلًا: «لِمَ دَخَلْتَ المُخَيَّمَ ووَجْهُكَ مَطْلِيٌّ؟»

أَجابَ هيوَرْد: «عِنْدَما يَزورُ زَعيمٌ هِنْدِيٌّ أَصْدِقاءَهُ مِنَ البيضِ، فإِنَّهُ يَخْلَعُ عَنْهُ رِداءَ جِلْدِ الثَّوْرِ ويَلْبَسُ قَميصًا يُقَدَّمُ له. ولقد قَدَّمَ لي أَصْدِقائي الهُنودُ طِلاءً أَطْلي به وَجْهي عِنْدَما أَزورُهُمْ.»

سُرَّ الشُّيوخُ سُرورًا بالِغًا بِهذا الإِطْراءِ، ودَعَوْا هيوَرْد لِلْجُلوسِ مَعَهُمْ ومُشارَكَتِهِمْ في الحَديثِ.

مَضى مِنَ الوَقْتِ نِصْفُ ساعَةٍ فأَخَذَ شَيْءٌ مِنَ القَلَقِ يَتَسَرَّبُ إلى قَلْبِ هيوَرْد. وبَيْنَما الأَحاديثُ تَدورُ عَلا صِياحٌ في الغابَةِ، ثم خَرَجَ من بَيْنِ الأَشْجارِ صَفٌّ مِنَ المُحاربين الهُنودِ يَحْمِلونَ فَرْواتِ رُؤوسِ بَعْضِ الَّذينَ قَتَلوهُمْ، ويَجُرّونَ مَعَهُمْ أَسيرَيْنِ. اِسْتَلَّ الرِّجالُ سَكاكينَهُمْ وحَمَلَ الأَوْلادُ والنِّساءُ العِصِيَّ والفُؤوسَ، وشَكَّلوا جَميعًا صَفَّيْنِ مَشى المُحارِبونَ بَيْنَهُما. وكانَ الأَسيرانِ يَتَلَقَّيانِ، طَوالَ



الطَّريقِ إلى وَسَطِ القَرْيَةِ، الإهاناتِ والضَّرباتِ. وفي وَسَطِ السّاحَةِ رُبِطَ كُلٌّ مِنْهُما إلى عَمودٍ.

بَدا المَشْهَدُ وَسَطَ أَضْواءِ المَشاعِلِ المُتَراقِصَةِ مُرْعِبًا. شَقَّ هيوَرْد طَريقَهُ إلى الأَسيرَيْنِ. فالتَفَتَ إلَيْهِ أَحَدُهُما ورَمَقَهُ بِنَظْرَةٍ ثاقِبَةٍ. فإذا هو أُنْكاس!



كانَ الأَسيرُ الآخَرُ واحِدًا من مُحارِبي الهورُن أَنْفُسِهِم، اتُّهِمَ بالجُبْنِ في مُواجَهَةِ الأَعْداءِ. وَقَفَ القَوْمُ أَمامَهُ يُوَجِّهونَ إِلَيْهِ الشَّتائِمَ والإهاناتِ ثمّ اسْتَلَّ أَحَدُهُمْ سِكّينَهُ وغَرَزَها في قَلْبِهِ. عِنْدَئِذٍ ضَرَبَ حَمَلَةُ المَشاعِلِ جَميعَهُمْ مَشاعِلَهُمْ في الأَرْضِ وغَرِقَتِ القَرْيَةُ كُلُّها في ظَلامٍ دامِسٍ. وفي لَحْظَةِ الظَّلامِ تِلْكَ سَمِعَ هيوَرْد صاحِبَهُ أُنْكاس يَهْمِسُ قائِلًا: «عَيْنُ الصَّقْرِ طَليقٌ!»

ثمّ اقْتَرَبَ هِنْدِيٌّ من هيوَرْد وقالَ له: «إِنَّ في زَوْجَتي روحًا شِرّيرَةً، هَلّا اسْتَعْمَلْتَ دَواءَكَ لِطَرْدِ تِلْكَ الرّوحِ منها!»



وكانَ هيوَرْد يَعْرِفُ شَيْئًا عن عاداتِ الهُنودِ، فرَأى في المُوافَقَةِ على اقْتِراحِ الرَّجُلِ فُرْصَةً يَسْتَطيعُ معها أَنْ يَتَجَوَّلَ في القَرْيَةِ بِحُرِّيَّةٍ.

مَشى الهِنْدِيُّ وهو يُشيرُ إلى أُنْكاس قائِلًا.

«في الصَّباحِ سيَموتُ هِنْدِيُّ الموهيكان هَذا. ستُشْرِقُ الشَّمْسُ على عارِهِ وستُراقِبُ النِّساءُ جَسَدَهُ يَرْتَجِفُ.»

تَبِعَ هيوَرْد الهِنْديَّ إلى خارِجِ القَرْيَةِ. ورَأى دُبًّا فلم يَخَفْ، لِأَنَّ الهُنودَ اعْتادوا الإبْقاءَ على دِبابٍ أَليفَةٍ حَوْلَ قَرْيَتِهِمْ. لَكِنَّ هَذا الدُّبَّ تَبِعَ الرَّجُلَيْنِ في مَمَرّاتِ الغابَةِ.

وَقَفَ الهِنْدِيُّ عِنْدَ بابِ أَحَدِ الكُهوفِ الصَّخْرِيَّةِ. داخِلَ ذلِكَ الكَهْفِ كانَتِ الهِنْدِيَّةُ المَريضَةُ. تَرَكَها الهُنودُ هُناكَ ظَنًّا منهم أَنَّ الجُدْرانَ الصَّخْرِيَّةَ ستُقَلِّلُ من قُدْرَةِ الرّوحِ الشِّرّيرَةِ على تَعْذيبِها.

طَلَبَ هيوَرْد مِنَ الهِنْدِيِّ أَنْ يَتْرُكَهُ وَحْدَهُ ويَبْتَعِدَ عن بابِ الكَهْفِ. اِلْتَفَتَ بَعْدَ ذلِكَ حَوْلَهُ يَسْتَطْلِعُ الكَهْفَ، وبَدا له أَنَّ المَرْأَةَ تَغِطُّ في نَوْمٍ عَميقٍ.

فَجْأَةً دَخَلَ الدُّبُّ الكَهْفَ ووَقَفَ على قَدَمَيْهِ ونَزَعَ رَأْسَهُ، فإذا هو عَيْنُ الصَّقْرِ في جِلْدِ دُبٍّ! وعِنْدَما صَحا هيوَرْد مِنَ الصَّدْمَةِ، أَخْبَرَهُ عَيْنُ الصَّقْرِ كَيْفَ أَنَّهُ رَأى مُشَعْوِذًا هِنْدِيًّا يَسْتَعِدُّ لِلدُّخولِ في جِلْدِ دُبٍّ، فضَرَبَهُ ورَبَطَهُ إلى عَمودٍ وأَخَذَ منه الجِلْدَ.

ثمّ أَضافَ: «بَعْدَ سَنَواتٍ من مُراقَبَةِ الحَيَواناتِ والتَّعَرُّفِ إلى طَبيعَتِها أَعْرِفُ كَيْفَ أَتَحَرَّكُ مِثْلَها.»

سَأَلَ هيوَرْد: «هَلِ اكْتَشَفْتَ شَيْئًا؟»

«الشَّقْراءُ، أَليس، في كَهْفٍ مُجاوِرٍ. لكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ إِلَيْها، فأَخْشى أَنْ يُرْعِبَها مَشْهَدُ الدُّبِّ. ويَحْسُنُ قَبْلَ الذَّهابِ إِلَيْها أَنْ تَمْسَحَ شَيْئًا مِنَ الطِّلاءِ عَنْ وَجْهِكَ.»





مَسَحَ هيوَرْد الطِّلاءَ عن وَجْهِهِ وذَهَبَ إلى أَليس. شَعَرَتِ الفَتاةُ بِراحَةٍ بالِغَةٍ عِنْدَما رَأَتْ مُنْقِذَها، لكِنَّها كانَتْ شَديدَةَ الشُّحوبِ مَشْدودَةَ الأَعْصابِ. وقد طَمْأَنَها هيوَرْد عن والِدِها، ثمّ سَأَلَها عن أُخْتِها كورا.

«أَخَذَها ماغُوا.»

اِلْتَقَطَ هيوَرْد بَطّانِيَّةً وَجَدَها في الكَهْفِ، وقالَ: «سأَلُفُّكِ بِهَذِهِ البَطّانِيَّةِ وأَخْرُجُ بِكِ، سيَظُنُّ هُنودُ الهورُن أَنّي أَحْمِلُ المَرْأَةَ المَريضَةَ.»

اِلْتَقاهُ زَوْجُ المَرْأَةِ فسَأَلَهُ قائِلًا: «إلى أَيْنَ تَأْخُذُها؟»

أَجابَ هيوَرْد: «حَجَزْتُ الرّوحَ الشِّرِّيرَةَ بَيْنَ الصُّخور. سأُعْطي زَوْجَتَكَ الآنَ بَعْضَ النَّباتاتِ المُقَوِّيَةِ، وأُعيدُها إلى خَيْمَتِكَ صَباحًا مُعافاةً.» واسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ بِهُدوءٍ وثِقَةٍ. وبَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ إلى أَنَّهُ أَصْبَحَ بَعيدًا عَنِ القَرْيَةِ أَنْزَلَ أَليس. وسُرْعانَ ما لَحِقَ بِهِما عَيْنُ الصَّقْرِ ودَلَّهُما على الطَّريقِ الَّذي يَأْخُذانِه، ثمّ قالَ لهيوَرْد:

«إذا الْتَقَيْتَ هِنْدِيًّا من قَبيلَةِ ديلاوِر فاطْلُبْ منه العَوْنَ. فقَبيلَتا ديلاوِر وموهيكان تَعودانِ إلى جَدٍّ واحِدٍ، ويَظُنّونَ أَنَّهُمْ جَميعًا أَحْفادُ السُّلَحْفاةِ! أَنا ذاهِبٌ الآنَ لإنْقاذِ أُنْكاس.»



عادَ عَيْنُ الصَّقْرِ إلى القَرْيَةِ، وهو لا يَزالُ في جِلْدِ الدُّبِّ. كانَ الخَطَرُ شَديدًا رُغْمَ إخْلادِ هُنودِ الهورُن إلى النَّوْم. ورَأى عَيْنُ الصَّقْرِ قُرْبَ أُنْكاس مُحارِبَيْنِ هِنْدِيَّيْنِ. وانْتَظَرَ طَويلًا قَبْلَ أَنْ يَبْتَعِدَ المُحارِبانِ ويَسودَ المَكانَ هُدوءٌ تامٌّ.

ظَنَّ أُنْكاس، أَوَّلَ الأَمْرِ، أَنَّ أَعْداءَهُ أَرْسَلوا له وَحْشًا يُعَذِّبُهُ، ثمّ أَدْرَكَ أَنّ الدُّبَّ هو صاحِبُهُ عَيْنُ الصَّقْرِ. وفي لَحَظاتٍ كانَ أُنْكاس قد تَحَرَّرَ، فقالَ لِصاحِبِهِ: «سنَذْهَبُ إلى قَبيلَةِ ديلاوِر نَطْلُبُ منها العَوْنَ، فنَحْنُ وهُمْ أَبْناءُ جَدٍّ واحِدٍ.»

تَسَلَّلَ الرَّجُلانِ مِنَ القَرْيَةِ، وانْطَلَقا بِحَذَرٍ بَيْنَ أَشْجارِ الغابَةِ مُتَّجِهَيْنِ إلى قَبيلَةِ ديلاوِر. مَشَيا طَوالَ اللَّيْلِ، والْتَقَيا، عِنْدَ انْبِلاجِ الصَّباحِ، بِهيوَرْد وأَليس، فساروا جَميعًا في اتِّجاهِ أَبْناءِ السُّلَحْفاةِ.

مَضى جانِبٌ مِنَ صَباحِ ذَلِكَ اليَوْمِ، ووَقَفَ حَكيمُ قَبيلَةِ ديلاور يَنْظُرُ مُنْدَهِشًا في وَشْمِ السُّلَحْفاةِ المَنْقوشِ على صَدْرِ أُنْكاس. ولم يَكُنِ الحَكيمُ قد قابَلَ الهِنْدِيَّ الشّابَّ مِنْ قَبْلُ، فقالَ مُشيرًا إلى الوَشْمِ الأَزْرَقِ الجَميلِ:

«مَنْ أَنْتَ؟»





«أنا أُنْكاس ابْنُ تشِنْغا ابْنُ السُّلَحْفاةِ العَظيمَةِ أوناميس. لقد جَرى دَمُ السُّلَحْفاةِ في الكَثيرِ مِنَ الزُّعماءِ، لَكِنَّهُمْ ماتوا جَميعًا، ولم يَبْقَ مِنْهُمْ إلّا أنا وأَبي.»

قالَ الحَكيمُ الهِنْدِيُّ: «إذًا أَنْتَ الموهيكانِيّ الأَخيرُ؟»

رَدَّ أُنْكاس باعْتِزازٍ: «أنا الموهيكانِيّ الأَخيرُ.»

سُرَّ الحَكيمُ الهِنْديُّ سُرورًا بالِغًا بِلِقاءِ أُنْكاس، حتّى إنَّهُ قَدَّمَ له خيرَةَ مُحارِبيهِ لِمُلاحَقَةِ ماغُوا وإنْقاذِ كورا.

«يَقولُ كشّافونا إنَّ ماغُوا وعَدَدًا من رجالِ الهورُن الَّذينَ يُرافِقونَهُ لَيْسوا بَعيدينَ عَنّا. ولَقَدِ احْتَجَزوا أَسيرَتَهُمْ في كَهْفٍ تَحْتَ الأَرْضِ.»



وَلمّا كانَ أُنْكاس الهِنْدِيَّ الأَخيرَ في قَبيلَتِهِ فقد تَقَرَّرَ أَنْ يَقومَ هو، على رَأْسِ قُوَّةٍ من مُحارِبي ديلاوِر، بِمُهاجَمَةِ قُوَّةِ الهورُن الرَّئيسِيَّةِ.

وتَقَرَّرَ أَنْ يَصْطَحِبَ عَيْنُ الصَّقْرِ مَعه عِشْرينَ مُحارِبًا للإِتْيانِ بمونْرو وتشِنْغا. على أَنْ يَلْتَقِيَ الفَريقانِ بَعْدَ ذلِكَ قُرْبَ الكَهْفِ الَّذي تُحْتَجَزُ فيه كورا.

قادَ عَيْنُ الصَّقْرِ جماعَتَهُ القَليلَةَ العَدَدِ مِنَ المُحارِبينَ الأَشِدّاءِ، دونَ أَنْ تُواجِهَهُمْ في الطَّريقِ عَقَباتٌ. وسُرْعانَ ما وَصَلوا إلى المَوْقِعِ الَّذي لَجَأَ إِلَيْهِ مونْرو وتشِنْغا. وكانوا في ذَلِك الوَقْتِ قد بَدَأوا يَسْمَعونَ ضَجيجَ المَعْرَكَةِ الَّتي كانَتْ تَدورُ في مَكانٍ غَيْرِ بَعيدٍ. اِتَّجَهوا جَميعًا بِبُطْءٍ وحَذَرٍ ناحِيَةَ الجانِبِ الكَثيفِ مِنَ الغابَةِ حَيْثُ كانوا يَعْلَمون أَنَّ كورا مُحْتَجَزَةٌ.



اِقْتَرَبَ عَيْنُ الصَّقْرِ وجَماعَتُهُ مِنَ الكَهْفِ، واسْتَطاعوا من مَكانِهِمْ ذاكَ أَنْ يُشْرِفوا على المَعْرَكَةِ. ورَأَوْا مُحاربي أُنْكاس يَدْحَرونَ رِجالَ الهورُن. خافَ هيوَرْد عِنْدَئِذٍ على حَياةِ كورا مِنِ انْتِقامِ رِجالِ الهورُن المَهْزومينَ، فقَفَزَ مُتَجاوِزًا عَيْنَ الصَّقْرِ ومُنْدَفِعًا ناحِيَةَ كَهْفِ الأَسيرَةِ. وراحَ يَدورُ داخِلَ الكَهْفِ المُعْتِمِ دَورانًا مَحْمومًا.

وَجَدَ نَفْسَهُ فَجْأَةً في زاوِيَةٍ مُعْتِمَةٍ إلى جِوارِ أُنْكاس، الَّذي كانَ بِدَوْرِهِ يَبْحَثُ في زَوايا الكَهْفِ. ولَمَحَ الِاثْنانِ على بُعْدِ خُطُواتٍ ثَوْبَ كورا الأَبْيَضَ. لقد كانَ ماغُوا ومُرافِقٌ له يَجُرّانِ الفَتاةَ بِوَحْشِيَّةٍ.

رمى أُنْكاس بُنْدُقِيَّتَهُ وقَفَزَ نَحْوَ ماغُوا. ولَكِنْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ

اسْتَلَّ الهِنْدِيُّ الآخَرُ سِكّينَهُ وغَرَزَهُ في قَلْبِ كورا. اِلْتَفَتَ أُنْكاس لَحْظَةً إلى جَسَدِ كورا الهاوي، فاغْتَنَمَ ماغُوا تِلْكَ الفُرْصَةَ وضَرَبَهُ بِفَأْسِهِ. اِسْتَجْمَعَ أُنْكاس الجَريحُ قُواهُ وضَرَبَ قاتِلَ كورا ضَرْبَةً هائِلَةً أَوْقَعَتْهُ قَتيلًا. لَكِنَّهُ تَهاوى بَعْدَ ذَلِكَ فأَسْرَعَ ماغُوا يُجْهِزُ عَلَيْهِ بِثَلاثِ طَعَناتٍ.

حَدَثَ ذلِكَ كُلُّهُ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ. ولم يُسْعِفِ الظَّلامُ هيوَرْد على اسْتِعْمالِ بُنْدُقِيَّتِهِ. أَسْرَعَ ماغُوا يَخْرُجُ مِنَ الكَهْفِ، وقد أَدْرَكَ أَنَّهُ في خَطَرٍ شَديدٍ. وَقَفَزَ قَفْزَةً يائِسَةً فَوْقَ شَقٍّ ضَيِّقٍ سَحيقٍ مِنَ الأَرْضِ، أَمَلًا في الوُصولِ إلى الجانِبِ الآخَرِ. لكِنَّهُ لم يَنْجَحْ، وإنْ تَمَكَّنَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِإحدَى الأَشْجارِ راحَ يَسْعى جاهِدًا أَنْ يَرْفَعَ نَفْسَهُ بِواسِطَتِها. أَسْرَعَ عَيْنُ الصَّقْرِ فعاجَلَهُ بِرَصاصَةٍ، سَقَطَ ماغُوا على إثْرِها في الوادي السَّحيقِ، فتَهَشَّمَ تَهْشيمًا.



أَشْرَقَتْ شَمْسُ الصَّباحِ على كَثيرينَ يَبْكونَ مَوْتاهُمْ. وكانَ جَسَدا كورا وأُنْكاس لا يَزالان مُمَدَّدَيْنِ، وقد غُطِّيا بالأَزْهارِ والحُلِيِّ والأَوْسِمَةِ.

لم يَبْكِ تشِنْغا، كما بَكَى الآخرونَ. لِأَنَّ ابْنَهُ ماتَ مِيْتَةَ الشُّجْعانِ.

لَكِنَّهُ كانَ يُحِسُّ بِحُزْنٍ عَميقٍ، وقالَ لِعَيْنِ الصَّقْرِ: «لقد ماتَ كُلُّ بَني قَوْمي. أَنا الآنَ وَحيدٌ.»



قالَ عَيْنُ الصَّقْرِ: «لا، لَسْتَ وحيدًا.» ثمّ مَدَّ يَدَهُ إلَيْهِ، فالْتَقَطَها الهِنْدِيُّ وتصافَحا بِقُوَّةٍ. وأَحْنى كُلٌّ مِنَ الرَّجُلَيْنِ رَأْسَهُ مُحاوِلًا أَنْ يُخْفِيَ دَمْعَةً حارِقَةً، حَسْرَةً على المُحارِبِ الموهيكانِيِّ الأَخيرِ.

بَكى مونْرو ابْنَتَهُ القتيلَةَ طَويلًا. وعادَتْ أَليس إلى إنْجِلترا بِرِفْقَةِ هيوَرْد. أَمّا عَيْنُ الصَّقْرِ فقد عاشَ طَوالَ عُمْرِهِ قَريبًا من صَديقِهِ تشِنْغا.



تَسْعى مَكْتَبَةُ لُبْنان مِنْ خِلالِ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ إلى تَعْريفِ الفَتى العَرَبِيِّ بِروائِعِ الأَدَبِ العالَمِيِّ، وإِعْدادِهِ لِلدُّخولِ، فيما بَعْدُ، في عالَمِ القِصَصِ الخالِدَةِ مِنْ بابِهِ الواسِعِ. إِنَّنا نَعْتَقِدُ أَنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنائِنا أَنْ يُكَوِّنوا فِكْرَةً صَحيحَةً شامِلَةً عَنْ نِتاجِ القِصَصِ الذّائِعَةِ الصِّيتِ في مُخْتَلِفِ أَنْحاءِ الأَرْضِ.

عَلى أَنَّنا نَثِقُ أَنَّ هَذِهِ القِصَصَ تَصْلُحُ، بِالشَّكْلِ الَّذي نُقَدِّمُها فيهِ، لِلْكِبارِ أَيْضًا، لِأَنَّنا حَرِصْنا عَلى أَلّا نَنْتَقِصَ مِنْ جَوْهَرِ الفِكْرَةِ الَّتي يَقومُ عَلَيْها العَمَلُ ومِنْ بناءِ الشَّخْصِيّاتِ كما أَرادَها المُؤَلِّفونَ.

وحَرِصْنا عَلى المُحافَظَةِ عَلى عَناوينِ الكُتُبِ الأَصْلِيَّةِ وكَذَلِكَ عَلى أَسْماءِ الأَعْلامِ والأَماكِنِ، كَما وَرَدَتْ في الأَصْلِ، رَغْبَةً في إِعْطاءِ صورَةٍ حَقيقِيَّةٍ عَنِ الجَوِّ العامِّ لِلْقِصَصِ، مِنْ حَيْثُ المَكانُ والأَوْضاعُ الاِجْتِماعِيَّةُ والأَحْداثُ التاريخِيَّةُ، وخِدْمَةً لِلْهَدَفِ الَّذي نَسْعى إِلَيْهِ وهُوَ تَمْهيدُ الطَّريقِ لِلتَّعَرُّفِ إلى الأَدَبِ العالَمِيِّ. عَلى أَنَّنا

تَجَنَّبْنا الخَوْضَ في تَفاصيلِ الأَسْماءِ الَّتي لا تَتَعَلَّقُ مُباشَرَةً بِصُلْبِ المَوْضوعِ ولا تُؤَثِّر عَلى سَيْرِ الأَحْداثِ، وذلِكَ لِكَيْ لا نُرْبِكَ القارِئَ العَرَبِيَّ بأسْماءٍ ثانَوِيَّةِ الأَهَمِّيَّةِ، غَريبَةِ اللَّفْظِ قَليلَةِ التَّواتُرِ.

وتَمْتازُ هَذِهِ القِصَصُ كُلُّها بِأَنَّها شَديدَةُ التَّشْويقِ، وتَقومُ في غالِبِها عَلى المُغامَراتِ المُثيرَةِ. وأَكْثَرُ هذِهِ القِصَصِ المُخْتارَةِ كُتِبَتْ أَصْلًا لِتُرضِيَ جُمْهورَ الشَّبابِ، وَهِيَ مِنْ هَذِهِ النّاحِيَةِ تُرْضي مَشاعِرَهُمْ ومَبادِئَهُمْ وحُبَّهُمْ لِلانْطِلاقِ واكْتِشافِ المَجْهولِ.

إنَّ هَذِهِ القِصَصَ جَميعَها، وإنْ تكُنْ في غالِبِها تَقومُ عَلى حُبِّ المُغامَرَةِ، تَتَناوَلُ أَصْدَقَ المَشاعِرِ الإنْسانِيَّةِ، وتُصَوِّرُ كِفاحَ الإنْسانِ لِتَحْقيقِ مُثُلِهِ العُلْيا دونَ أنْ يَعْبَأَ بالتَّضْحِياتِ.

وزُوِّدَتْ كُتُبُ السِّلْسِلَةِ جَميعُها بِمُقدِّماتٍ تُعَرِّفُ بالمُؤَلِّفِ كما زُوِّدَتْ بِرُسومٍ مُلَوَّنَةٍ رائِعَةٍ تُضْفي جَوًّا مِنَ السِّحْرِ على أَحْداثِ القِصَصِ، وتُصَوِّرُ الخَلْفِيّاتِ الاجْتِماعِيَّةَ والتارِيخِيَّةَ أَصْدَقَ تَصْويرٍ.

طُبِعَ في إنجلترا ١٩٨٥



Series 654 Arabic

في سِلسِلَة كُتُبِ المُطالَعةِ الآن أكثر من ٣٥٠ كتابًا تتناوَل ألوانًا مِن الموضوعات تناسِبُ مختلف الأعمار. اطلب البَيان الخاصّ بِها مِن: **مَكتبة لبنان** – ساحَة رياض الصُّلح – بَيرُوت.